مع الشعراء

نقـــــد الشعر

بقلم فايز العمروسى

المدرس بمدرسة المنيرة الابتدائية للبنين

يجرنا الـكلام فى نقد الشعر ، إلى لمحة خاطفة فى طبيعة الشعراء .

فمنهم ذو الموهبة الخاصة ، وهو المنكوب الذى لا يبرأ أبداً ؛ ومنهم المقلد ، الذى يعيش مع الأحياء فى مستوى واحد ، وهو السعيد الذى لا يعرف الألم إلى نفسه سبيلاً ، والأول هو من يبرز لنا : « أدب الشخصية » أو أدب « الـكيان الذاتى » ذاك لأن طبيعته موهوبة من الحس والحيوية والقوة الروحية ، مابه تمتزج بكل مظهر من مظاهر الحياة ، فتخرجه صورة صادقة من نفسه ، وأنموذجاً دقيقاً لشخصيته ، وفرق بين هـذا وبين الناظم الذى يحس مظاهر الحياة إحساساً فطرياً فيصورها كيفما وقع عليها نظره السريع ، دون أن يكون بينها وبين نفسه اتصال ، وهذا الشاعر — مع التساهل فى التسمية — هو الموجود فى معظم الحياة الأدبية الحاضرة ، وهو هو الذى يسعد بالغنيمة من الجزاء والتقدير ! !

* * *

إن صلة الشاعر بنفسه ، هى ميزان العظمة والنبوغ ، فكلما اشتدت الصلة بينهما ، طغت النفس عليه وحجبته بأجنحتها فلا يستطيع التخلص منها ، ولا يجد سبيلاً إلى الفرار من تحت هذا الضغط العنيف ، فهو أبداً متلاش فيها ، ذائب في حوضها ، ومن هنا تظهر شخصيته فى إنتاجه رغم أنفه ، ويمتد ظلالها فى كل وادٍ يسلـكه ، وكل جو يحوم فيه ؛ فهو في الرثاء والتهنئة والمدح والوصف والغزل وفي الفكر والتأمل ، وفى كل خاطرة توقظها فى نفسه صور الحياة ونوازعها — هو فى كل هـذا ذو طابع لا يتغير ، وفى موسيقية لها إيقاعها الخاص به ، وبين

ظلال من الألوان التي شبت تحت عرشها نفسه الفطرية الأولى !

ولعلّ هذه الخصائص هي ما ميزت شعر « لامرتين » شاعر الحب والجمال بطابعه الخالد ، وأضفت على ليالى « ألفريد دموسيه » أنغاماً تأملية حزينة احتوت نفسه وقلبه ، وهي هي تلك الخصائص التي بها خَلَّدَ « شِلِى » الشاعر الانجليزى ، فى مقطوعات حياته الغرامية الصاخبة ، وهي هي نفسها ما أبقت على شعر « كِيتس وبيرون » الشاعرين الانجليزيين رغم قلة إنتاجهما وقصر عمريهما !

فقوة الشخصية — مهما كان نوعها — هي التي تخلد فن صاحبها ، وبقدر ظهورها أو تلاشيها يكون تقديره والاعتزاز به ... والشاعر من هذا النوع ممتاز بأمرين : بصدقه فيما يحس ، وبقدرته على تصوير هذا الحس بريشة كُنهِه الذاتىّ ، لا بريشة الطلاء والزخارف والألوان ، وهو بتلك القوة منبع صادق بالفيض والإلهام قبل أن يكون للبواعث الخارجية أثر فى الانارة والاذكاء !

أما ذلكم الشاعر الذى ينظم فيجيد ، وينمق فيبدع ، ويوقع فيُنَغّم الإيقاع من غير روح أو حرارة أو صدق ، يمدح كل عظيم بصفات واحدة لا تتغير ، ويرثى كل راحل ببكاء واحد لا يختلف ، ويصف الليل بأنه ظلمة وهدوء ، أو قمر ونجوم لا غير ، وينظر إلى الصحراء فيحسبها رمالا واتساعاً فحسب ، ويرنو إلى البحر فيحسبه أمواجاً وشواطىء ، ويمنو إلى الروض فيخاله خضرة وأشجاراً مجردة من الأثر ، وعارية من التأمل والفكر الناضج ... أما ذلكم الشاعر فهو والناس سواء ، لم يخرج عن مألوفهم ، ولم يتجاوز دائرة أفكارهم ! ! إذا تغزل سبته ملامح الوجه ، ورشاقة الأعضاء ، ولطف التناسق ، وإذا تذكر سرد الحقائق مجردة كأحدوثة الأطفال وقصص المؤرخين ، وإذا حاول أن يفكر عَلِقَ فكره بالسطحىّ من الأمور ، وعجز عن أن يمد هذا الفكر بالتأمل العميق ... هذا الشاعر لم يحمل إلينا رسالة الشعر الخالدة ، التي تسجل لصاحبها فى تاريخ الفكر والانسانية لقب الانسان الممتاز

* * *

وحرام أن تبيح القوانين الشعرية لقب « الشاعر » لمن كانت هذه شاكلته ، فالفكر والصدق والشعور والقلب ، مواهب غالية لا بد من توفرها فى الانتاج الأدبي لينال فى الحياة تقديرها المنوى من الاجلال ، وحيث يخلو الانتاج منها فما أجدره بالفناء ! ولا تختلف هذه المواهب عما عناه الأستاذ « العقاد » بـ « الشخصية » التى نفاها عن المرحوم « شوقى » فى جميع إنتاجه الشعرى و عندى أن « شوقي » ليس هو وحده الذي فقد الشخصية ، فإن أغلب شعراء عصر الانتقال إلى عهد النهضة الحديثة من هذا النوع ، غير أن « شوقى » وإن فقد شخصيته لم يفقد فى شعره عبقرية « الفنان » المبدع ، فوق ما امتازت به ميوله من أنه الشاعر الشعبي الخالد !

على أننى أبيح « للناظم » الذى يتمشى مع الصنعة والاجادة ، ولا يستطيع مزجها بنفسه وطبعها بطابعه الخاص — أبيح له أن يحذق صنعته ويشبعها إجادة وإتقاناً ، ولكن لا أستطيع أن أقول إنه « شاعر » بالمعنى الذى تحدده مهمة الشعر السامية ، أبيح له هذا وأعذره كل العذر ، إذ لو كانت له نفسيه قوية لظهرت — وإن حجبها — ولو كان له روح لخفق فى كل خاطرة من خواطره ومَن مِنَ الشعراء الأقدمين — إلا قليلاً — خالف النمط الذى سار عليه شوقي ؟ كلهم من هذا النوع ، لأنهم عاشوا فى أجواء اجتماعية مختلفة ، تطلبت مرافقها أن تتلاشى شخصياتهم ، وتفنى أرواحهم ، فلم يحفلوا بالشعر إلا كصنعة كلامية ، أجودها ما جرّ الكسب وقرّب من الملوك والأمراء ، وما أعتقد أن حياة « شوقى » كانت غير حياتهم فى شىء !

* * *

وبعد : فسيقول قائل : أين نقد الشعر من هذا الكلام ؟ وأحب أن يعرف السائل أن نقد الشعر معناه فهمه ... وما احتوته هذه الكلمة إنما هو فهم للشعر وتفهم لمختلف الطبائع التى تنتجه ، ومحاولة لوزن أقدار تلك الطبائع على ضوء الشعر الذي نريده ، أو الذى يريده الفن الشعرى الكامل ! وإليك صورة من نقد الشعر أو « فهمه »

يسمع هذا بيتاً من الشعر فيصيح على الفور « الله ! » ثم تسأله ماذا فهم من البيت ؟ فيجيبك لا أدري ؟ ... ويسمع ذاك بيتاً من الشعر فيطالب منك الإعادة فتعيد ! ثم يطلبها ثانياً فتعيد : ثم يصمت في إطراقة من البلادة ليجيبك بعدها بتلك الكلمات « اللفظ ده إيه ؟ ودى مصدر أو اسم مصدر و ... و ... الخ »

ومعنى هذا ، أن السامع الأول ذو ملكة فنية تيقظت إلى الناحية الموسيقية فى البيت ، دون أن تترسم قواعد اللغة فيه ، فاهتز وطرب كمن تشجيه الألحان ، ويسبح فى خيال الأنغام وهو لا يدرى لأصولها معنى ، وأن الثانى ليست فيه تلك الملكة ، فهو مقفر من الحس الفنى ، وغير صالح لغذاء المعنى أو الروح ، وكلا الاحساسين ليس صالحاً وحده لسماع الشعر أو نقده ، لأن الأول موسيقى بحت ، والثانى نحوى بحت ! وكلاهما مخطىء فى التقدير ، عابث فى الحكم إذا حكم ، غير أن الأول قريب من الصلاحية ، لأنه موهوب بأكبر عناصر الشعور وهو الموسيقية ، أما الثانى . فما أجدره بفهم « الفرائض والبلاغات ! »

القصيدة الشعرية كطاقة من الأزهار المنسقة ، فاذا نثرت أزهارها واحدة واحدة هتكت حرمتها ، وشوهت روعتها ، وأهنت جلالها ، فلا تبعث فى النفس ما كانت تبعثه فيها من الفيض والنشوة والشعور بالجمال

والبيت الواحد من القصيدة كالزهرة العذراء ، تنظر إليها العين لتستشعر جمالها ، وتستشف عذوبتها ، فى صمتها المعبر ، وحيائها العفيف ، ثم ينتقل الحس بها إلى الفكر ، ليأخذ طريقه إلى التأمل والامعان ، فاذا ما عبثت بعذريتها ، وشرحت تلك الزهرة بأصابعك الأثيمة إلى جزئياتها ، ذلت كبرياؤها ، وأصبحت نظرية علمية ، لا معنى سحرياً جميلا !

إذن فالنظر الفنى إلى القصيدة ، يجب أن يكون نظراً كلياً ، لا جزئياً لأنها كتلة واحدة تعبر عن معان نفسية ، مصدرها القلب ، وفيضها الشعور ، والقلب والشعور متحدان دائماً فى التعبير عن العاطفة ، نحو مؤثر واحد من المؤثرات ، فمن الخطأ أن نفرق بين الشعور الواحد فى قصيدة ما ... بأن نحللها بيتاً بيتاً ،

أو أن نهد كيانها بالنظر إلى ألفاظهـا التى أعدها رخيصة ، إذا قيست بالمعنى الرائع الذى تحمله القصيدة إلى الناس

ولست أقصد بهذا الـكلام أن نغض النظر نهائياً عن دقة التراكيب وسلامة التعبير وصحة الألفاظ . كلا : ولـكن أريد من الناقد أن يكون ذا موهبتين : موهبة الفن الشعري ، حتى يُحس جلاله وعذوبته ؛ وموهبة القوة اللغوية ، التى تستشعر النقص فى المرحلة الأخيرة من النقد ، دون أن يغض هـذا النقص — المقبول — من تقديره لفنية القصيدة ، أو يؤثر فى إحساسه نحوها

* * *

ومثل ناقد الشعر ، كمثل اثنين يستمعان إلى أنغام موسيقية تمثل قطعة فى معنى من المعانى ، أحدهما لا يستشعر من الموسيقى إلا رنين صوتها ، والثانى موهوب فنى يستشعر كمالها أو نقصها . فلا شك أن الأول إذا تعرض للنقد كان جريمة كبرى على الفن ، وتهجما شنيعاً على معنى لا يحســه ولا يتذوقه ، وليس فى استمداده الفكرى ما يهيئ له أسباب التأمل فيه . ولا شك أن الثانى أهل للملاحظة وجدير بالتعليق على ما يسمع من الأنغام ، من حيث قوتها أو ضعفها ، أو رقتها أو تجافيها ، فاذا لم يكن تعليقه من ناحية أصول الفن ، فلا أقل من أن يكون من ناحية الحسّ والوجدان ... وناقد الشعر واحد من هذين الاثنين و كفى !!

* * *

للموسيقى الذائع الصيت « بتهوفن » قطعة موسيقية اسمها « أمواج الدانوب » قطعة صامتــة تحس من خلالها رعشة المياه ، وخلجات الأمواج الصغيرة ، وقفزاتها فى المدّ وانحسارها فى الجزر ... أيحسّ ممناها وجلالها سامع مقفر من الحسّ الفنىّ والشعور الانسانىّ الممتاز ؟ طبعاً لا . وما تلك القطعة إلا قصيدة فلهيٌ لها من يسمعها ، ليحسّها ... لينقدَها .. !

* * *

قابلني مرة — فى الطريق العامة — واحد من كبار المثقفين فحياني قائلاً :

قرأت قصيدتك « وداع عهد » التي تقول فيها :

ذكرت العهد فانسابت برغمي دمعة حرَّى
وأحبسها فتغلبني فأسكبها دماً مُرًّا

ولى اعتراض على ما قلت . قلتُ : تفضل بإبدائه . قال : كيف يكون الدم مُرًّا ؟ ففهمت فوراً عقلية مولانا ... وأردت التخلص من اعتراضه الوجيه... بأسهل رد بديهى محسوس ! قلت : لقد ذقته بلسانى . فتعجّب !! وقال : أذقت الدم بلسانك ؟ قلت : وأسكنته جوفى ! فزاد تعجبه ! فأكدت له ذلك فاقتنع ! ثم قال : إذن هى حقيقة لا مجاز ؟ قلت : وأمّ الحقيقة !

وهذا مثل من نقاد الشعر ، تطوف بذهنه المعانى الحسية دائماً فيتصور فى : « وأسكبها دماً مرًّا » أننى سكبتها دماً أحمر قانياً وطعمه مرٌّ كالحنظل !

ومثل آخر من نقده أو فهمه :

قرأ أديب هذين البيتين لإسماعيل صبرى :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيّين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقاً فى خلال صديقه تسرب أثناء العتاب وغابا

ففهم الأديب من البيت الثانى سوء نية الشاعر . وذلك من لفظ « خلال » . ثم فهم من « تسرب وغابا » أن أحدهما ابتلع الثانى فى جوفه ، وهذا بعض ماقال :

« ثم كيف كان تسرب الصديق فى خلال صديقه ؟ هل حمله الآخر فى بطنه حتى تمر عليه تسعة أشهر فيلده ؟ وكيف تسرب بجملته من اخمص قدميه إلى ناصيته ؟ الحق أنه تسرب فاحش مبتذل ، ولو أنه تسرب قلبه إلى قلبه لكان ظريفاً مستملحاً ، يريد الناقد بهذا ، الإشارة إلى بيت المرحوم « الرافعى » :

وشدّ الهوى قلباً لقلب كأنما يريد الهوى إنفاذَ قلب إلى قلب

هذا أديب مؤلف فهم البيت كما سقته الآن ، فكيف يفهم الشعر غير الأدباء. إذا كان المشتغلون بالأدب فى معالجة فهمه وتذوقه يفهمون معنى « تسرب وغابا » على أنهما يفيدان عملية الابتلاع بعد الأكل والمضغ ، أو يفيدان أن الحبيب مع

حبيبه حين اللقاء كالحوت مع فريسته حين الابتلاع ؟!

وكيف يفهم الأديب قول شاعر الحب والجمال « لامارتين » :

وبنفسي فى ساعة الموت صمت يحتوينى كصمتة القبلات

بين قلبين فى عناق طويل دائم الصمت بالغ الخفقات

سيقول الأديب : كيف ينام الحبيبان فى القبلات ! وكيف يكون فى القلبين رعد وزلازل ؟

وأخيراً : قد يحسن التطويل فى هذا الموضوع ، ولعلنى راجع إليه فى المدد الآتى ، متناولاً فى ذلك أيضاً دراسة الأدب فى مصر ، وإذا عشت ، فإنى فاعل ذلك إن شاء الله ؟

جابر العمروسى